البيان (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا وُجودَ للمقالة البيانية إلا فى المعانى التى اشتملت عليها يقيمها الكاتب على حدودٍ ويديرها على طريقة ، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مُثيراً بها مكامن الخيال ، آخذاً بوزن تاركاً بوزن لتأخذ النفسُ وتترك

ونقلُ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعُها من الحياة فى أسلوب وإظهارها للحياة فى أسلوب آخر يكون أوفى وأدقّ وأجلَ ، لوضعه كلَّ شىء فى خاصٍّ معناه وكشفه حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبس . وتلك هى الصناعةُ الفنيةُ الكاملة : تستدركُ النقص فتتمّه ، وتتناول السر فتعلنه ، وتلمس المقيَّد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحدُّه ، وتكشف الجمالَ فتظهره ، وترفع الحياة درجةً فى المعنى ، وتجعلُ الكلامَ كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولكنه أداة فى يد القوة المصوِّرة لهذا الوجود ، تُصوِّر به شيئاً من أعمالها نوعا جميلاً من التصوير . الحكمة الغامضةُ تُريدُه على التفسير ، تفسير الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يريده على التبيين ، تبيين الصواب ؛ والفوضى السائجةُ تسأله الاقرار ، إقرار التناسب ؛ وما وراء الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة ؛ والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسيةً لتعلو به أو تنزل . ومن ذلك لا يُخلق المُلهَم أبداً إلا وفيه أعصابه الكهربائية ، وله فى قلبه الرقيق مواضعُ للاحتراق تنفذ إليها الأشعة الروحانيةُ وتتساقط منها

وإذا اختير الكاتبُ لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها عليه ، منها سِدادُ رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتى به ؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود ، وله بها وجود آخر ؛ ومن ثَمَّ يصبح عالَماً بعناصره للخير أو الشر كما يُوجَّه ؛ ويلقى فيه مثلُ السر الذى يلقى فى الشجرة لاخراج ثمرها بعمل طبيعى يرى سهلاً كل السهل حين يتم ، ولكنه صعب أىُّ صعب حين يبدأ

هذه القوة هى التى تجعل اللفظة الواحدة فى ذهنه معنى تاماً ، وتحول الجملة الصغيرة الى قصة ، وتنقلب باللمحة السريعة الى كشف عن حقيقة ، وهى تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ، وتدخله فى حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهى هى التى تميز لغته وأسلوبه لأنها تلتقط بمعانيها ألفاظها ، وما تعطيه هو إلا لتعطى الناس منه ، وكما خُلق الكونُ من الاشعاع تضع الاشعاعَ فى بيانه (١)

ولابد من البيان فى الطبائع المُلهمة ليتسع به التصرّف ، إذ الحقائق أسمى وأدقّ من أن تُعرف بيقين الحاسة أو تنحصر فى إدراكها . فلو حُدِّت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبَّس الملائكةُ هذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرةُ الصور البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة ، هى كل ما يمكن من طريقة تعريفها للانسانية

وأىُّ بيان فى خُضرة الربيع عند الحيوان من أكل العُشب إلا بيان الصورة الواحدة فى معدته ؟ غير أن صُوَرَ الربيع فى البيان الانسانى على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد أزهاره ويكاد الندى يُنضّرها كما ينضره

ولهذا ستبقى كل حقيقة من الحقائق الكبرى : كالايمان والجمال والحب والخير والحق — ستبقى محتاجة فى كل عصر

(١) هذه القطعة الفنية الرائعة هى مقدمة كتاب (وحى القلم) ، ولاريب أن القراء سينعمون منه بأبلغ وأمتع ما أخرجته العربية فى هذا العهد .

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التى صنع منها الكون

وإن يكن قد قرَنَ ذلك بذكر الرخص وأضافه الى البطالة والعبث

فالأدب الانجليزى ظل دائماً على صلة بالحياة وحقائقها ، يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه على فهم والحياة دائبة التحول والتجدد ، فلا ندحة للأدب إذا توثقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صوره وأزيائه . أما الأدب العربى فباعد بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ؛ فلا غرو أن جمد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول الأدب الانجليزى فى قرنين من أدب ناشىء مختلط الأوضاع إلى أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال

فخرى أبو السعود

إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة

* * *

وفى الكتّاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتى ألفاظهم ومعانيهم فنّـا عقلياً غايته صحةُ الأداء وسلامةُ النَّسق ، ويندرُ البيان فى كلامهم فيكون كوخز الخضرة فى الشجرة اليابسة هنا وهنا ؛ ولكن الفنّ البيانى يرتفع على ذلك بأن غايته قوةَ الأداء مع الصحة ، وسموُّ التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً جمال الصورة ؛ أولئك فى الكتابة كالطير له جناح يجرى به ويدِفّ ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به ويجرى ، ولو كتب الفريقان فى معنى واحد لرأيت النطق فى أحد الأسلوبين يقول : أنا هنا فى معانٍ وألفاظ . والالهام فى الأسلوب الآخر يقول : أنا هنا فى جلال وجمال وصور وألوان

ودورةُ العبارة الفنية فى نفس الكاتب البيانى دورة خَلْق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هى كأنها شبَّت فى نفسه شباباً ، وأقوى مما هى كأنما كسبت من روحه قوة ، وأدلّ مما هى كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتبُ العلميّ تمر اللغة منه فى ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها ؛ ولكنها من الكاتب البيانى تمر فى مصنع وتخرج عليها طابعُه هو . أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوْا بها إلى أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شىء إلا الفكر والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والتأثر

وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين فى خلق الناس : فى كل الوجوه تركيب تامٌّ تقوم به منفعةُ الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام الخَلق جمالَ الخَلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ؛ وهو لذلك يُرى ويؤثر ويُعشق

وربما عابوا السموَّ الأدبيّ بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛ وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه مُحيّر ، ولكن الحسن كذلك ؛ وبأنه كثير التكاليف ، ولكن الحرية كذلك

إن لم يكن البحر فلا تنتظر اللؤلؤ ، وإن لم يكن النجم فلا تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ، وإن لم يكن الكاتب البيانى فلا تنتظر الأدب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

حب الشاعر

للأستاذ السيد محمد زيادة

يا حبها : أأنا مخلوق بك ومخلوق لك ؟ . . كيف أتّقيها وجَمالها فى كل مشرق من مشارقه صورة ، وفى كل صورة معنى ، وفى كل معنى خلابة وفتنة ؟ . .

* * *

كنا على موعد أنا وهى ، وكان موعدنا بين الأصيل والغروب فى حديقة سميناها حديقة الحب ؛ تترامى أطرافها ، وتُرى فى مكانها من بعيد كأنها عاشق برّح به هواه فذهب إلى الخلاء يتفرج بالوحدة ، وتُرى من داخلها فى جوها الشعرى الغزلى كأنها جنة هيئت لعاشقَيْن

وتقوم بين أفنانها ربوة ضاحية نائمة . . . ضاحية بنسيمها الرفاف المعطر ، ونائمة بمنظرها السكران الحالم ، وتظلل هذه الربوة شجرة لفاء وارفة تعانقت أغصانها فكان لها موقف الحب والشوق . . . وهناك على هذه الربوة تحت هذه الشجرة كان الموعد . . والتقينا

وقبل أن يحين الملتقى بساعة كنت جالساً فى حجر الشجرة أرقب من خلال أوراقها احمرار الشمس بعد تمايل الأصيل ، وكان كل ما فى الحديقة من أشجارها وزهرها يترجرج ، كأنما كان للحديقة قلب ينتظر انتظار قلبى . . .

وسرَب خيالى بين أنحاء الطبيعة فى أنحاء الفكر ؛ أما قلبى فكان معى ولم يكن معى ! ! . كنت أحس أنه معى يدق ويرتعش وهو مطمئن خائف ، وكنت أحس أنه بعيد عنى بعد حبيبتى وأنه قادم معها بعد فترة

ومرت على الدقائق ثقيلة محببة ، فكانت كل دقيقة تأتى بعد دقيقة كأنها أجل يمتد من أجل . . .

* * *

وإنى لفى غِرة وذهول فكر إذ رأيت الحديقة تهتز فجأة كأنما راعها رائع . . . فتبينت فإذا بنسمة وردية تنفلق فى جو الحديقة نصفين وينفذ من بينهما صوت ملاك . . . وتسمَّعتُ فاذا بها أغنية هى فن وسحر فن ، وسمعت صوت الملاك يردد :

يا حبيب القلب مالى   شغلتْ نجواك بالى